التحليل الاقتصادي لأحوال "العمران" في مقدمة ابن خلدون[1]

أ.م. آسيا كاظم فرحان / كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة بغداد
الباحث/هيثم حميد مطلك / كلية الإدارة والاقتصاد / جامعة بغداد

المستخلص

يجد الباحث المتخصص من خلال دراسة نصوص مقدمة ((ابن خلدون))[1] وفي إطار عرضه لعلمه الجديد (علم العمران)الذي اتخذه معياراً لقراءة التأريخ والواقع ومنه التحليل المنتج لنظرية جديدة تعطي التفسير والتعليل الاقتصادي لتطور المجتمع ونشوء الدولة كمرحلة متقدمة من مراحل تطور المجتمع ،من شرنقة البادية الى فضاء الحاضرة وسلطة الحكم وامكانيات جهاز الدولة (الملك)، لقد وجد ابن خلدون ثنائية من الظواهر الاجتماعية تهيكلت على شكل بناء مجتمع البادية بشروطه الاجتماعية القبلية وشروطه الاقتصادية من بدائية قوى الإنتاج علاقات الإنتاج ليكون نمط حياة الزراعة والرعي ،قاسية الأجواء، وفي ظل كيان العصبية القبلية يتضح الدور الأساس في تجميع مظاهر التحول الاقتصادي والاجتماعي والصعود الى أعلى مراتبها في تولي وقيادة التمرد اقتصادياً وسياسياً، وبالدخول في عمران الحضارة وبعد تطور الظواهر والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية نشهد نمو وسيادة نمط الحضارة الاستهلاكية وما يصاحبه من مظاهر الترف التي تهدم في بنية الحضارة وجهاز الدولة انتقالاً الى نمو مشاهد الصراع بين البادية والحاضرة، في هذا الاطار يؤسس ابن خلدون من خلال هذه الرؤية الواقعية للأحداث الى قراءة لأثر المكون الاقتصادي في توضيح الرؤية التاريخية لذلك العصر الذي تحكمه تناقضات المصالح الاقتصادية والصراع بين ما أطلق عليه(بيئة التوحش وبيئة الاستئناس)،ان هذه الثنائية الاقتصادية تبرز على صعيد التناقض الداخلي للمصالح الاقتصادية للمجتمعين المتباينين اقتصادياً ، لذا فهدف الورقة البحثية انما هي لابرز دور الجدل الاقتصادي في إطار تصارع حتمي مبني على المشاهدة القريبة للواقع الاجتماعي المرير للمغرب العربي في العصر الوسيط، لذلك فان افكار ابن خلدون هي نموذج لقراءة التحول الاجتماعي اقتصادياً بمنهجية علمية.

المصطلحات الرئيسة للبحث/العمران- الاقتصادي-البادية-الحاضرة-الظاهرة -العصبية- الصراع- التناقض-المجتمع.

البحث مستل من رسالة ماجستير

[1] هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون، ولد بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨ه(١٤٠٦م) درس العلوم الدينية والعقلية والفلسفية والمنطق وعلوم الطبيعة والرياضيات والفلك والتأريخ ،وقد حضي باعجاب جميع اساتذته ونال اجازاتهم العلمية ، شغل مناصب سياسية وادارية وقضائية اعتزلها وتفرغ للتدريس والتأليف في عام ٨٠٣ه في القاهرة ،له مؤلفات في الفقه والفلسفة والمنطق والتأريخ ، الا ان أشهر مؤلفات هو كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،واشتهرت مقدمة هذا الكتب فيما ترك المتن لما حوته من شتى ألوان العلوم والمعارف ولاسيما الاجتماعية فهو مؤرخ وعالم اجتماع . للتوسع في حياة العلامة ابن خلدون ينظر: ابن خلدون ،التعريف باين خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، بيروت ، دار الكتاب اللبناني١٩٧٩،ص١٩-٢٤.]هو كتاب دون فيه ابن خلدون مجمل تفاصيل حياته العلمية والأدبية وسيرته ونشاطاته السياسية ، في نمط من الكتابة يحاكي اسلوب السيرة الذاتية . (الباحث)]؛ ضياء الدين رجب شهاب الدين، الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون، دار الفتح، الشارقة، ١٩٩؛ علي عبد الواحد وافي ،ابن خلدون حياته وآثاره ومظاهر عبقريته ، سلسلة أعلام العرب٤ ،مكتبة مصر، بدون تاريخ.

مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية
المجلد ٢١ العدد ٨٤
الصفحات٣٣٤-٣٥٦

يتبلور البحث في إطار المنهجية التالية :

١. **مشكلة البحث** : يعالج البحث المشكلة التي تنطوي على ان هناك إشكالية في اعتماد ابن خلدون على دراسة ((الظواهر الاقتصادية))في تحليل الظواهر الاجتماعية(تقسيمات العمران).

٢. **أهمية البحث** :تأتي أهمية البحث في كشف الدور الأساس والفاعل للعامل الاقتصادي في تكوين وتشكيل التحليل الاقتصادي عند ابن خلدون للعمران، مما يستجلى منه العلاقة الوثيقة بين الفكر الاقتصادي لابن خلدون والواقع الاقتصادي للمجتمع المغاربي في العصر الوسيط.

٣. **هدف البحث** : يهدف البحث الى استجلاء التطور الحاصل فيما بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الاقتصادية وفقاً لمعيار العمران وتقسيماته بين البادية والحضر التي تناولها ابن خلدون بالتحليل والدراسة. والانطلاق من ذلك لبيان أثر ((التحليل الاقتصادي)) واهميته كأساس للتحليل الاجتماعي في مقدمة ابن خلدون.

٤. **فرضية البحث** : يعتمد البحث فرضية ان تأسيس الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون كان على ((منهجية اقتصادية)) لتحليل الظواهر الاجتماعية في نظرية العمران.

هيكلية البحث

المبحث الاول : الأوضاع الاقتصادية للمغرب العربي في عصر ابن خلدون

المبحث الثاني : مقولات التحليل الاقتصادي في نظرية العمران

أ- اولاً: أهمية العامل الاقتصادي في تقسيمات العمران

ب- ثانياً : الجذر الاقتصادي لتطورات العمران

ت- ثالثاً : الشروط الاقتصادية للتطور من مجتمع البداوة الى مجتمع الحضر

المبحث الثالث : تحليل البعد الاقتصادي لعامل العصبية القبلية في التحول الاجتماعي.

المبحث الأول/ (تحليل الأوضاع الاقتصادية في عصر ابن خلدون- العصر الوسيط -)

The Economic Situations at a Median Century

انطلاقاً من العلاقة القائمة بين الفكر الاقتصادي والتاريخ الاقتصادي وما تلعبه الحياة الاقتصادية في ثناياها من وسائل الإنتاج وطرائق الإنتاج من الدور البالغ في تهيئة وصياغة البنية الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية ،فان دراسة الواقع الاقتصادي للمغرب العربي في العصر الوسيط تتأتى في سياق توضيح العلاقة الجدلية بين الاثنين.

عاش المغرب العربي أوضاعا اقتصادية ممتلئة بتناقضات المصالح الاقتصادية لبيئات الحضر والبادية بسبب الاضطرابات السياسية التي كانت في الواقع من الأسباب الحقيقية في تراجع دور جهاز الدولة في النشاط الاقتصادي وهو ما ساعد على بروز اقتصاد حر شبه تلقائي يتحكم فيه قانون الحاجة وسعي الإنسان الفرد الى تلبية حاجاته ورغباته الضرورية التي لا يستقيم بقاؤه إلا بها.وإذا رأينا نوعاً من السياسة الاقتصادية عند وضع الجباية ولاسيما في المعاملات الخارجية فانه يجدر بنا ان نشير الى عدم نضج الدوافع التي تدعو الدولة الى التدخل ، فهي غالبا ما تكون ناتجة عن رغبات فردية في الثروة أو عن التزامات عقائدية تدخل من باب مقاومة الكفار .وحتى لو وجد بعض السلاطين ممن لهم عمق الفكر والإحساس المرهف بالدور الحقيقي للسلطان فان مواقفهم سرعان ما تتلاشى في خضم القلاقل والاضطرابات السياسية التي لم تنقطع في المغرب العربي في تلك المرحلة التاريخية موضوع البحث.

وكان من أسباب هذا الوضع ان وجدت في المغرب (عقليتان في الجانب الاقتصادي) تتعايشان في البلد نفسه:

- الأولى أقل طموحاً وهي عقلية المزارعين(البدو/الرحل) الكثيرين الذين يعيشون في شبه عزلة داخل الأرياف ولا يعرفون من وجوه الاقتصاد إلا إخصاب الأرض بما ورثوه عن الأجداد من أدوات واستغلال وذلك في معركتهم القاسية من اجل البقاء[٢]. فهي مجموعات سكانية تعيش صراع البقاء في أجواء اقتصاد البداوة وتناقض أقصى الترف في المدينة وأقصى التوحش في الريف والصحراء ، ((وكان حينئذ اجتماعهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكِن والدفاءة انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ...فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفُدُن والمسارح للحيوان وغير ذلك))[٣] ، فضلا عن ذلك من أجواء الترحال القاسية التي لا تتجاوز نمط الإنتاج القروي البسيط * والذي يعاني في نفس الوقت من ظلم الدولة وعدوانها على أموالهم وضياعهم[٤] .

---

[٢] سالم المكي ،الاقتصاد في مقدمة ابن خلدون بين الواقع والنظرية ،تونس ٢٠٠٦ ط٢ ،ص١٠١-١٠٢.

[٣] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، المقدمة ، لبنان ،دار الارقم ، اعتناء ودراسة أحمد الزعبي ، الباب الثاني /الفصل الأول في أن أجيال البدو والحضر طبيعية ص١٤٨.

[*] في بعض النسخ ((نشيط)) وهو تحريف. نقلاً عن أحمد الزعبي ، المقدمة مصدر سابق ص١٤٨.

[٤] ينظر عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، الفصل الثالث والأربعون ((في أن الظلم مؤذن بخراب العمران))، وما تضمنه من تفاصيل واقعية عن صور الظلم الذي تعانيه البادية والحاضرة، ص٣٢٠.

فالبدو كما يصفهم ابن خلدون أسبق وأقدم من الحضر ((فهم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه ، وان الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في احوالهم وعوائدهم.... فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها ... والحضري لا يتشوف الى البادية الا لضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته)).[٥]

- أما الثانية فهي عقلية قد أعطت التجارة أهمية على الصعيدين المحلي والعالمي و تشاهد الأموال الطائلة التي يحصل عليها التجار الأجانب . وهذه هي عقلية (سكان المدن/الحضر) فقد حاولوا التصدي لأعمال التجارة بما في أيديهم من أموال فكان منهم كبار التجار وهم المحظوظون، وصغار التجار ممن هم اقل حظاً او الصناع الذين ورثوا وسائل الإنتاج وأسلوب الصناعة عن آبائهم .ويصف ابن خلدون أحوالهم بانهم ((تعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار ...ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق وعلاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج ومغالاة البيوت والصروح ... فينتحلون معاشهم من الصناعة والتجارة وهؤلاء هم الحضر)).[٦]

فأولئك الذين يسكنون القفار الى جانب هؤلاء المترفين في المدن هما مجموعات سكانية تنسب الى امة واحدة أو لجهة واحدة أو لمنطقتين متجاورتين لا تنقطع علاقتهما فإما مباشرة بحكم إرغام السلطة الإقطاعية أو بشكل غير مباشر إذا تركت الأسواق حرة بين الناس مما يجعل هذه الحرية لصالح التاجر في المدينة او الحاضرة على حساب البدوي الذي تبخس أثمان بضاعته في الأسواق بحجة أنها منتوجات طبيعية من صنع الطبيعة كما ينبه الى ذلك ابن خلدون ، وبذلك فان البدوي (وهو اخو الحضري عرقا ودينا وانتسابا الى الوطن) يجد نفسه يعيش مقذوفا به في الأراضي الجدباء الحرة التي تفرض اقتصاد البقاء الضروري من المعاش بينما تعلو أثمان السلع المدنية أو الحضرية .إضافة الى ذلك فان الاحتقار المحسوس للبضاعة البدوية في أسواق المدن هو الذي عزز سيطرة مجاميع الإنتاج الحضرية على الأسواق اما بالمنافسة أو بالسيف. مما يبرز لنا طبقتين متصارعتين وليستا متعاملتين او متجاورتين فحسب. فصورة الاستغلال تتكون إذن كما يلي :

- ان المدينة بمجموعها تستغل البادية بمزارعيها ومربي مواشيها كافة، ثم ان طبقة التجار تستغل طبقة الصناع في المدينة.
- وأخيراً تأتي الدولة بما لها من قوة كبيرة وتوسع نظامي فتستغل الجميع وهي بمثابة التنين الذي يأكل الناس. [٧]

---

[٥] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة مصدر سابق، الباب الثاني /الفصل الثالث في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية أصل العمران والأمصار مدد لها، ص١٥٠.

[٦] عبد الرحمن ابن خلدون ،المقدمة ،مصدر سابق ،الباب الثاني،/الفصل الأول في ان أجيال البدو والحضر ص١٤٩.

[٧] عبد المجيد مزيان ،النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر ،الجزائر،١٩٨١،ص٣٥٤-٣٥٥-٣٥٦ .

إذن المجتمع في عصر ابن خلدون تميز بوضعية اقتصادية لا تخلو من التشعب شانها شان الحياة الاجتماعية والسياسية في المغرب ،وهذا يدل على تطور ونضج، لكنه نضج في تداخل المشاكل ،مشاكل ضعف الإنتاج خاصة والاختلال الاجتماعي عامة مما وفر حقلاً خصباً ومادة ثرية لأعمال البحث والإنتاج الفكري، بل لعل النظريات الاجتماعية لا تتولد إلا عن هذه الحالات الخاصة التي تشهد فيها المجتمعات بعض الانتفاضات هي في الواقع علامات للتطور والتجدد. إذ لولا تشجيع الليبرالية الاقتصادية لهيمنة بريطانيا على أسواق أمريكا ما كان للمفكر الاقتصادي (ليست) ان يضع (الأسس الوطنية) للاقتصاد في الولايات المتحدة الأمريكية.ولولا المشاكل والأزمات التي حركت صميم النظام الرأسمالي في القرن التاسع عشر ما كان (لكارل ماركس) ان يأتي بنظريته (المادية التاريخية) ودعوته الى انضاج الوعي الاجتماعي للطبقة العاملة كشرط تأريخي للثورة والتحول نحو الاشتراكية [٨] .

وقياساً على هذا نجد ان الحياة الاقتصادية في المغرب العربي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) لم تكن لتؤثر في فكر ابن خلدون إلا لأنها كانت مضطربة متضاربة الظواهر متشعبة البناء تبعث على التساؤل والحيرة والتأمل والتعليل، بل لعل فكر ابن خلدون بجدية منهجه في التحليل إنما هو في الأساس كان حصيلة الظروف التي حاقت به وأثرت فيه فأثارت دهشته وفتحت ذهنه وأنتجت المقدمة.

المبحث الثاني/ بنية التحليل الاقتصادي في نظرية العمران

(Structure of Economic Analysis in the construction theory)

بنى ابن خلدون تحليله الاقتصادي لأحوال العمران عبر ثلاث مقولات اساسية وهي:

Say of Importance of economic factor in construction

اولاً: مقولة أهمية العامل الاقتصادي في العمران

ينطلق ابن خلدون في نظريته للعمران من فرضية أساسية وهي ان المجتمع عبارة عن ظاهرة طبيعية ، فنراه يشير إلى العلل الأصلية التي تجعل الناس يتحدون للعيش مجتمعين ، ويدل على مجموعة متماسكة منها في مقدمته وكما يلي:

١. **الأول** : هي عامل التعاون الاقتصادي الذي برزت أهميته بتوزيع المهام وتقسيم العمل الذي يرسخ المفهوم الاجتماعي للتخصص في الاعمال الاقتصادية من الحرف والصنائع المتباينة مكانياً بين البدو والحضر ، ومن خلال مفهوم التعاون يصل ابن خلدون الى رسوخ تأثير العامل الاقتصادي في تأسيس المجتمع الانساني تلبية لمتطلبات والحاجات البشرية عبر عملية الانتاج التي تطلب مزيداً من تقسيم العمل لإشباع تلك الحاجات:

حاجات بشرية ⟵ اجتماع وتعاون ⟵ تقسيم العمل ⟵ انتاج ⟵ اشباع الحاجات

يقول ابن خلدون في كلمته التمهيدية الأولى في بدء المقدمة ((الانسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية ...وهو معنى العمران ....الا إن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته

[٨] محمد عارف الكيالي ،تاريخ الفكر الاقتصادي – الجزء الثالث- الفكر الاقتصادي في العصر الوسيط، مكتب الطابعة المركزي /جامعة بغداد ، كلية الادارة والاقتصاد، ١٩٩١.ص١٥

من الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه... فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف)).[٩]

٢.**الثاني**: فيتضمن تعدد الحاجات الانسانية وعدم محدوديتها الذي يقتضي عند ابن خلدون تعدد وتطور وسائل انتاج السلع والخدمات لإشباع تلك الحاجات مما يعني ارتباط عملية تطور بنية الانتاج (وسائل الانتاج) تبعاً لتطور حاجات الناس .

٣.**الثالث**: بروز الشكل البدائي لنمط الإنتاج ويتمثل بالزراعة في مراحلها المبكرة والرعي والصيد وبعض الحرف التي لا تتطلب مهارات عالية* ، فبدائية الحاجات البشرية سينشأ عنها بدائية وسائل الانتاج ليتشكل منها علاقات الإنتاج ذات الطبيعة القبلية في عمران البادية .

٤.**الرابع** :يأخذ التطور بوسائل الانتاج مع تطور ونمو الحاجات الانسانية تبعاً لتطور علاقة الانسان بالطبيعة من ((التأثر)) الى ((التأثير)) بسبب سعي الانسان في بيئة البادية الى الخروج من نطاق ما يعانيه من صعوبة الحياة وما يلاقيه من خشونة العيش وقلة الموارد وطغيان سلوكيات التوحش والبداوة على مجمل عملية تلبية تلك الحاجات ومن ثم فان عملية تطوير وسائل الانتاج من خلال تطويع العلوم والفنون (قوة الفكر) لخلق وسائل انتاج جديدة تلبي سلوكيات الافراد الساعين الى الخروج من نطاق البداوة في مراحلها المبكرة .مما ينتج عنه أحوال اجتماعية جديدة تنبئ عن أحوال اقتصادية جديدة توحي بسريان نمط جديد من الانتاج يضم في داخله (قوى انتاج صاعدة –وسائل انتاج صاعدة) ((اختلاف الناس في أحوالهم انما في اختلاف نحلهم ...ثم اذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش الضروري وحصل لهم ما فوق الحاجة الغنى والرفه .. ثم تزيد أحوال الترف...والانتهاء في الصنائع من القوة الى الفعل ...فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ...))[١٠]،فيحرصون على استجادة ((عمران جديد)) تتضح ملامحه في ضوء نمط الانتاج الجديد والذي يكون متقدماً على الأول بحسب درجة الاستجابة للتطور الحاصل في نمو الحاجات البشرية . من هنا يتوضح منهج الجدل الاقتصادي الذي يرسم بواسطته ابن خلدون التطور الحضاري لكيان العمران .

٥.**الخامس** : تطور ونضج النمط الانتاجي الجديد وتوسع عملية التطور في الحاجات مروراً بالانفصال التدريجي من نمط اقتصاد البادية الى نمط اقتصاد أكثر تطوراً يتنازل فيه الافراد عن جزء من سلوكياتهم السابقة وصولاً الى الانفكاك التام عن النمط السابق الى تبلور نمط جديد تتضح معه سلوكيات اقتصادية

[٩] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، مصدر سابق، الباب الأول / من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات ص ٧٣.

* ينتقل تطور شكل العلاقة بين الانسان والطبيعة من ((التأثر بها))الى شكل ((التأثير فيها))الذي يقتضي تطويع الانسان للطبيعة عن طريق تطوير قوى الإنتاج لتدخل في نطاق الصناعة والتجارة بشكلها الناجز للبناء المدني والحضري في مراحل متقدمة من العمران،((الباحث)).

[١٠] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، الباب الثاني /الفصل الأول في أن أجيال البدو والحضر طبيعية ص١٤٨.

جديدة تتمثل بالحاجات الكمالية المتنامية التي لا يمكن تلبيتها الا من خلال سعي الافراد عبر تقسيم العمل وايجاد نمط جديد من الانتاج قادر على تلبية الحاجات الاجتماعية الجديدة والمتمثلة بالسعي الى اقتناء الكمالي من السلع والحرص على الدخول في مظاهر اكثر تطوراً من السابق ومن ثم سنشهد نمواً جديداً يقتضي نمواً عمرانياً مصاحباً للتطور في سلوكيات اقتصادية مواكبة لمظاهر المدينة التي تلبي كافة الاحتياجات العمرانية كافة وبالتالي فأمام البدو السعي الى السكن في الحواضر والانتقال من البادية الى نمط الانتاج الجديد (العمران الجديد).

((تطور الحاجات ←— علوم وفنون ←— صنائع وحرف ←— نشوء انماط انتاجية جديدة ←— سلع وخدمات (كمالية) ←— تطور اقتصاد عمران البدو (البادية)الى اقتصاد عمران الحضر(المدينة) ←— حاجة جديدة الى تأمين النظام الاقتصادي الجديد وحماية مقوماته (الدولة) قمة العمران)).

٦.**السادس** :فيتمثل بحاجة المجتمع الى كيان (الدولة) الذي يؤدي دور تأمين عامل الأمن لكل الناس في البوادي وفي المدن حتى يستطيعوا الاستمرار في حركة النشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي ، (اذ لا يمكن لأحد ان يكون مكتفياً ذاتياً بل ان البشر جميعاً لهم حاجات متعددة ولابد من وجود آخرين يعملون على توفيرها وهو ما يصطلح عليه ((التبادل)) في ظل كيان((الدولة)) توفيرها لمستلزمات الأمن والاستقرار)[١١] فتعدد الحاجات وتطورها سيفصح عن حاجة واضحة للدولة لتقوم بتأمين متطلبات التطور الحضاري ويؤكد ابن خلدون مقولة الدولة وأهميتها في دعم حركة العمران بشكل عام والمعاش* بشكل خاص فالدولة دون العمران والمعاش لا يمكن ان تتصور وكذلك فان العمران والمعاش متعذران دونها واختلال احدهما موجب لاختلال الآخر، ذلك ان الدولة ماهي الا جهاز اجتماعي اقتصادي سياسي لتحقيق العدل والمساواة في المقام الاول ويتفرع منه وظيفة تأمين الظروف الملائمة لسبل المعاش ((حركة النشاط الاقتصادي)) بغية تحقيق النمو الصحيح والسليم لبنية العمران ،وبذلك ستزداد أهمية ضرورة وجود كيان مهيمن على حركة الحياة الاقتصادية مع تطور نمو العمران والمعاش، يؤدي فيه الدور المركزي في ادارة الموارد الاقتصادية بالشكل الذي يتفق مع نمو القاعدة الاقليمية للنشاط الاقتصادي، وهي الدولة التي صنفها على انها من المعاش غير الطبيعي[١٢].

[١١] هاني ، (Haney)، نقلاً عن : الدكتور أحمد ابراهيم منصور، نظرية الدولة والفعالية الاقتصادية ،أطروحة ابن خلدون أنموذجاً "دراسة مقارنة" جامعة الموصل ،كلية الإدارة والاقتصاد ، قسم الاقتصاد، مجلة تنمية الرافدين العدد ٩٣،المجلد ٣١،لسنة ٢٠٠٩ص[٧٩-١٠٣]،ص٨٣.

* المعاش عند ابن خلدون بمثابة النشاط الاقتصادي داخل العمران ،((الباحث)).

[١٢] ينظر د. عبد القادر جغلول، مصدر سابق، ص٨ -٥٩.

لذلك فالنشاط الاقتصادي الذي ينمو بالتدرج متمثلاً بالإنتاج والتبادل وتقسيم العمل في مختلف أقسام وأنواع الحرف والصنائع ومختلف اصناف التجارة انما سيعكس تأثير كيان الدولة بشكل أكثر أهمية على عملية ((تقسيم الثروة داخل العمران)). ((وهكذا فلابد للناس من حكومة ،وهي من مميزات النوع البشري ،أي لابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض...ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون الوازع واحداً منهم)).[١٣]

عمران ← دولة ← أمن واستقرار ← معاش (نشاط اقتصادي) [انتاج / تبادل /توزيع الثروة]

وبناءً على ما سبق فان ابن خلدون وبقيامه في القرن الرابع عشر بتحليل علمي للشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لشمال أفريقيا قد طرح وصفاً للبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جد معقدة التي حدد تطورها البطيء سياقاً تاريخياً طويلاً [١٤]،اجتهد فيه لجعل الصدارة للعوامل الاقتصادية التي تعرض لها المجتمعات ، وهو يصنف الأمم بالتفريق فيما بينها وفق طرز الإنتاج التي تنقطع إليها ،فيضع في المرتبة الأولى حياة الحضر مع مختلف الصنائع ،ثم يجيء الزراع المجتمعون في القرى والمقيمون بالبلدان السهلية أو البلدان الجبلية ، وأخيراً يأتي البدويون ،ولكن مع التفريق بين من يعنون بالبقر والغنم كالبربر والصقالبة والتركمان ، ومن يعنون بالإبل كالعرب والبربر والأكراد [١٥] ، وهكذا فان الظواهر الاجتماعية على اختلافها ترتبط بالظواهر الاقتصادية وتلعب الأخيرة دوراً مهما في نشوء وتطور العمران عند ابن خلدون ولها أثرها الكبير في نشوء وتطور كيان الدولة عنده أيضاً ،ولكي نفهم فلسفة التاريخ عند ابن خلدون علينا أن نلتفت إلى نوعين من الوقائع يدرسهما في المقدمة :

- النوع الأول الوقائع الاجتماعية (العمران) وهي المفتاح لديه لفهم التاريخ الإنساني.
- النوع الثاني فهو الوقائع الاقتصادية وهي وقائع ملازمة للأولى ومسببة لها غالباً.

وهذا التقسيم صحيح ودقيق لأن ابن خلدون كما سيتضح لنا من خلال البحث انه قد فسر التاريخ تفسيراً اقتصادياً أي أنه اعتبر أهم عامل يحرك التأريخ هو العامل الاقتصادي ،ومن أجله اعتبره الكثير من الباحثين مبشراً بالفلسفة المادية التاريخية [١٦] ،لذلك فإذا كانت أهمية آراء ابن خلدون للتأريخ ليست في كونها تقدم نظرية كاملة في التأريخ الاجتماعي بقدر ما تقدمه لنا من شهادة ثمينة تبرز العوامل الفاعلة في التجربة الحضارية العربية الإسلامية في المغرب العربي ووفقاً لهذه العوامل يمكن فهم أو تفسير التأريخ ، فهناك ثمة عاملين أساسيين يعتبرهما ابن خلدون ،مجتمعين متفاعلين ، ذوا أثر حاسم في التجربة الحضارية الإسلامية وهما :العامل الاجتماعي (العصبية :وهي رابطة اجتماعية–سيكولوجية شعورية ولاشعورية معاً تربط أفراد جماعة ما ،قائمة على القرابة، ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هنالك خطر يهدد أولئك الأفراد :كأفراد أو كجماعة–)

[١٣] غاستون بوتول ،ابن خلدون فلسفته الاجتماعية ،ترجمة عادل زعيتر ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،لبنان، الطبعة الثانية ،١٩٨٤،ص٤٧.
[١٤] إيف لاكوست ،العلامة ابن خلدون ،ترجمة ميشال سليمان ،دار ابن خلدون ،بيروت ،لبنان،١٩٧٤،ص٦.
[١٥] غاستون بوتول ،مصدر سابق،ص٤٧.
[١٦] زينب الخضيري ، فلسفة ابن خلدون التاريخية ،أطروحة دكتوراه، كلية الآداب بجامعة القاهرة ،دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٩،ص١٤١.

والعامل الإقتصادي ((ويقصد به البنى الاقتصادية الحاضنة لقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في صور المعاش المتنوعة في البيئات الحضرية والبدوية)) لذلك نجد ابن خلدون يحاول الجمع بين (النظام الاجتماعي) الناشئ عن العامل الأول و(النظام الاقتصادي) الناشئ عن العامل الثاني في رؤية شاملة للحياة بطابعها الكلي وتفاعل النظامين لتكوين النظام السياسي وتبلور الدولة بعد ان يتحول المجتمع من الحياة البدوية إلى الحياة الحضرية كنتيجة طبيعية لمقدمات تتعلق بالعاملين المذكورين آنفاً. [١٧]

ثانياً : مقولة الأساس الاقتصادي لتطورات العمران A Say of Economic root of construction) (transformations

لقد كان للأوضاع الاقتصادية والسياسية المريرة التي عانى منها المغرب العربي في القرن الرابع عشر الميلادي الأثر الواضح في بناء دعائم المنهج لدى مؤلف المقدمة والذي يستوعب إدراك ان المشكلة تكمن في تصارع المصالح الاقتصادية لبيئة الحضر وبيئة البادية ومنها السعي نحو السلطة والحكم ولذلك فان ظاهرة التراجع والتفكك والهرم والانحطاط التي أصابت المغرب العربي في ذلك العصر،أمر لا مفر منه ،ولا مرد عنه ، وإزاء هذا المنعطف التاريخي وما يعرض لطبيعة العمران من تبدل الأحوال فقد تبلور لدى ابن خلدون متطلب أساس وهو تدوين كافة جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ،ومن هنا فان (العمران) جاء ليشمل جميع جوانب الحياة :((انه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو علم عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات ،وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ،وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ،وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال)).[١٨] فهو صورة متكاملة عن مجمل الأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية وما تتأثر به من العوامل الاقتصادية الحاسمة في تكون وتحول المجتمع من البيئة البدوية الى البيئة الحضرية في خضم بحث الإنسان عن تامين قوته الأساسي وأمنه الاجتماعي في بيئته التي يعيش فيها ومن ذلك يمكن تحديد الأسس التي تقوم عليها نظرية العمران بما يأتي:

١.ان غاية اجتماع الناس هي تأمين الضرورة الاقتصادية المتمثلة بحاجات المعاش الضرورية.

٢.ان سعي الناس نحو العمل لتامين معاشهم هو العامل الحاسم في تحديد نمط الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

٣.تتبلور مظاهر البيئة العمرانية (البدوية والحضرية) بتنظيم اقتصادي واجتماعي خاص بكل منهما.

[١٧] محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التأريخ الإسلامي، دار الطليعة ،بيروت، لبنان ،الطبعة الثالثة نيسان ١٩٨٢،ص٣٩١-ص٣٩٢.

[١٨] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة، مصدر سابق ، فصل بعنوان (في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والصنائع والعلوم ونحوهما وما لذلك من العلل والأسباب) ص٦٦.

وهكذا يربط فكر ابن خلدون الوجود الاجتماعي بحاجة الإنسان الطبيعة لوسائل المعاش، أي بمعنى ان الضرورة المادية (الاقتصادية) في نظره هي القوة المحركة للتاريخ والتطور الاجتماعي. كذلك فان (وسائل الإنتاج) هي المحدد الأساس لنمط الحياة الاجتماعية وفقاً لفكر ابن خلدون وان الأسلوب الذي يتبعه السكان في إنتاج وسائل العيش ((قوى الإنتاج))هو الذي يحدد نمط حياتهم ويلعب الدور الأساس في تكوين الخصائص الروحية والعادات والتقاليد لهذه المجموعة أو تلك من السكان ((علاقات الإنتاج))[١٩]، ونجد ذلك في قوله :((ان اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش ،فان اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد الى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك ،فإذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر ،ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ،ومغالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالجون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان . ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم. فقد تبين ان أجيال البدو والحضر طبيعية لابد منهما كما قلنا)). [٢٠]

ونجد ان فكر ابن خلدون يمنح الأولوية للمعاش كظاهرة اقتصادية لها الدور الاساس في تكون المجتمع وتطوره خلال البيئات المتباينة في عمرانها بين الحضر والبادية ،فنجده يقول في المعاش أنه مجموع المهن والصنائع والحرف التي تعيد تشكيل القيم المادية من خلال وجوهه الطبيعية التي يرى فكر ابن خلدون انها تظهر تباعاً وهي ((الفلاحة والصناعة والتجارة)) . [٢١]

١٩ ينظر عبد الرزاق مسلم ماجد ،دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية ، الجمهورية العراقية، بغداد، ،سلسلة الكتب الحديثة (١٠١)، منشورات وزارة الاعلام، دار الحرية للطباعة ،١٩٧٦.ص٦٥.

٢٠ عبد الرحمن ابن خلدون ،المقدمة ،مصدر سابق، الباب الثاني/ الفصل الأول : في أن أجيال البدو والحضر طبيعية ص١٤٨-١٤٩.

٢١ ابن خلدون المقدمة، مصدر السابق، الباب الخامس /الفصل الثاني في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه، ص٤٢٠.

فالعمران ينمو من خلال النشاط الاقتصادي((المعاش)) الذي يكون ويعيد صياغة المقولات الاقتصادية عبر البادية والحضارة . فلدينا إذن هرمية مجموعات اجتماعية ،أو هرمية مستويات في التطور الحضاري ، والمعيار الذي يحدد الموقع في هذه الهرمية فهو سهولة أو صعوبة إشباع الحاجات كما يذكر ابن خلدون [٢٢] ((قد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم والعاجزون عما فوقه ، وان الحضر هم المعنيون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك ان الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، لان الضروري أصل والكمالي من فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن اول مطالب الانسان الضروري، ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان الضروري حاصلاً. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها ..ومتى ما حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج الى الدعة ، وأمكن نفسه الى قياد المدينة))[٢٣].

ثالثاً : مقولة الشروط الاقتصادية للتطور من مجتمع البداوة الى مجتمع الحضارة

(A Say of Economic Conditions of the Development from Scrubland Society to civil society)

تتخذ عملية التطور الاجتماعي والانتقال المرحلي شكلاً دائرياً بسبب النزعة التشاؤمية لدى ابن خلدون ، فالواقع المجتمعي الذي استنزفته الصراعات الداخلية لمَا يزل يخرج من تناقضاته الاقتصادية والسياسية حتى تستهلكه الى مرحلة جديدة تنتهي بالانحطاط ، ومن ثم فان هذه (الدورة) هي المعبر الحقيقي عن الجدلية المكانية ، فان استنتاج ابن خلدون بان الانتقال الى حياة المدن عامل هدم أساسي لعلاقات الإنتاج البدوية (العصبية) استنتاج صائب مبني على الدقة في الملاحظة ، فعلاقات الإنتاج البضائعي البسيط التي ازدهرت في مدن المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي كانت تحطم باستمرار التقاليد الموروثة من المجتمع العشائري لصالح التقاليد المدنية الجديدة (اضمحلال طور العصبية البدوي) وهو بذلك يقلل الى حد كبير من الدور الذي يعطيه المؤرخون للأبطال في صنع التاريخ الى صالح الحزب أو العصبية[٢٤].

فيجتهد فكر ابن خلدون في حصر عملية التطور الانتقالية الشاملة بين الريف والمدينة من (الاقتصاد البدوي الزراعي) الى (الاقتصاد الحضري الصناعي والتجاري) فمرحلة البداوة البدائية هي مرحلة أساسية تمر بها المجتمعات وبفعل عوامل ذاتية تؤدي بها الى اجتياز هذه المرحلة ودخولها مرحلة النمو والتقدم الى مرحلة الانحطاط والتخلف وبالتالي فان خصائص مراحل التطور الثلاث لمجتمع المغرب في العصر الوسيط تتركز بما يأتي:

[٢٢] محمد الأخضر بن حاسين، الفكر الاقتصادي عن عبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦)، منتدى ((فكر علمي وثقافة تقدمية)) ،شبكة الانترنت الدولية .

[٢٣] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة، مصدر سابق، الباب الثاني /الفصل الثالث :في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية أصل العمران والأمصار مدد لها، ص١٥٠.

[٢٤] ينظر عبد الرزاق مسلم ،مصدر سابق ص٨٦.

١.مرحلة اقتصاد البداوة (The Elementary Economic period):وهي مرحلة البداية الطبيعية لنشوء مجتمعات المغرب والجذر الأساس لكل ما يحدث بعد ذلك من تطور، ونجد فكر ابن خلدون وهو يحلل ويصنف هذه المرحلة اقتصاديا بأنها تتميز بخصائص أساسية عامة تكوِن ما اسماه مجتمع البداوة الذي يتمظهر بدرجات متفاوتة[٢٥] من العمران بين ريفٍ وباديةٍ وقرى متأخمةٍ للريف، إلا أنها تشترك فيما بينها بخصائص عامة وهي كما ياتي :

- المحيط الطبيعي للبادية على وفقً العمران الخلدوني، المجال الحيوي وميدانه : فعاليات الإنسان لإنتاج أسباب بقائه واستغلال الموارد الاقتصادية بشكل بدائي :كالقنص ،والصيد ،والالتقاط ، وغياب العلوم والفنون ، ووجود للقليل من الصنائع التي لا بد منها للحياة. فالإنتاج موجه لما هو ضروري [٢٦].
- انحراف المحدد الاقتصادي في المجتمع البدوي الأظهر تأثيراً ((قوة العمل)) عن ممارسة دوره الاقتصادي الطبيعي وذلك لان النظام القبلي تحكمه اعتبارات البيئة الصحراوية فينتج عنها أن قوة العمل مستنفرة على شكل فصائل دفاع عن القبيلة لتكون في مجموعها مظهراً ممتازاً للفروسية فمهنة الفارس في المجتمع البدوي تلقى الاحترام والترحيب بما تمتاز به من قوة وبسالة وشكيمة تحاكي قسوة الحياة الصحراوية. ومن ثم هي أعمال أكثر أهمية من العمل اليدوي ،حتى تصل الصنائع من حصة الناس الأقل أهمية في المجتمع لأن أهل البداوة كما يصفهم ابن خلدون : (يكلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم ولا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الأجر والثمن والأعمال) [٢٧].
- ان الضروري من المعاش هو في الحقيقة مرتبط بالحياة الزراعية والرعوية وهو النشاط الاقتصادي الذي توفره طبيعتها الجغرافية التي تستوعب ضرورات النشاط الزراعي والحيواني.
- يتسم المجتمع بسيادة النظام القبلي وهو نظام (أبرسي)* لان الأسرة تتسع الى الأبناء والأحفاد،الذين يعيشون تحت سلطة أب أو جد واحد له هيمنة مادية وروحية على الجميع[٢٨].فهو مجتمع تسوده العصبية بأقوى أشكالها. وهنا تشكل العصبية القبلية علاقات الإنتاج الزراعي الرعوي .
- تقسيمات العمل محدودة .والصنائع تتحدد بالتقنيات المباشرة .في ظل الضروري من المعاش.
- معظم الناتج يتم لغرض المبادلة.
- انحسار الفائض الاقتصادي في غير صالح عملية (الترسمُل) بسبب الروابط القبلية التي تحد من نشوئها لدى أفراد القبيلة بشكل عام.
- المستوى الثقافي ناتج عن الطابع الأولي (البدائية) والتعليمي منخفض بل تفشي الأمية بشكل واسع.[٢٩]

---

[٢٥] للتفصيل ،ينظر عبد المجيد مزيان ،النظريات الاقتصادية لابن خلدون ،مصدر سابق٢٣٣

[٢٦] أحمد إبراهيم منصور ،دراسة منهج الفعالية الاقتصادية :العمران والعقل الخلدوني أنموذجا مجلة اسلامية المعرفة –المعهد العالي للفكر الإسلامي، العدد ٥١ شتاء ٢٠٠٧،ص٢٧٨.

[٢٧] ينظر أحمد إبراهيم منصور ،مصدر سابق ص٢٧٨.

* النظام الأبرس هو النظام الذي يكون فيه الأب أو الجد هو الرئيس صاحب السلطة والهيمنة المادية والروحية داخل القبيلة أي ((أب ورئيس في ذات الوقت))،الباحث.

[٢٨] عبد المجيد مزيان ،مصدر سابق ،ص٢٦٤.

[٢٩] شوقي دنيا ،جوانب من الاقتصاد الكلي في فكر ابن خلدون،جامعة أم القرى ،دار معاذ ١٩٩٣، ص٤٥٥-٤٥٦.

يتضح لنا مما سبق ان البادية قبل كل شيء هي نمط لإنتاج الخيرات الضرورية للحياة، التي تلبي حاجات بشرية بسيطة وهو أمر في غاية الأهمية بما يعكسه من ضعف في الموارد يفسر العلاقة الموجودة بين الإنسان والطبيعة بأنها ليست علاقة تحول بل علاقة استعمال.لم يحتو التوسط بين الإنسان والطبيعة على الأداة بل على القطيع . وإذا قلنا بان الاقتصاد في البادية يسيطر عليه العمران ، فهذا يعني ان القحط هو مصير البدو ، وعليه كان اهتمامهم الاول التخلص منه[٣٠].

٢.مرحلة التحضر العمران (تبلور الدولة) (Urbanization period and growth of state)

:الحضارة عند ابن خلدون هي أحوال عادية زائدة عن الضروري من أموال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفاه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر.[٣١] ويشخصها قائلاً " إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسيع البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر ،ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت استجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ، ومغالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالجون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وارفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين ان أجيال البدو والحضر طبيعية لابد مها كما قلنا "[٣٢]

نستدل من الفقرة المذكورة انفا ان لهذه المرحلةً ((خصائص عامة)) تميزها اقتصاديا عن المرحلة الأولى وهي كما يأتي:

- تبلور الجهاز الحكومي وضمور آليات النظام القبلي،فالتحضر مشروط بالدولة ويرتبط الاول بالثاني بعلاقة تبادلية ، والتحول هنا من الانتاج الضروري الى الكمالي الذي يتطلب تقسيماً دقيقاً للعمل يؤدي الى تغير اطوار استغلال الموارد من خلال نشاطات الزراعة والصناعة والتجارة فلن تكون هناك اهمية للموارد الاقتصادية من دون تخصيصها ولن يكون الانتاج بحسب الحاجة فحسب بل طبقاً للطلب أولاً والتحول في نمط النتاج هذا يقتضي اجتماع الناس من دون دلالة القربى بل بدلالة المكانة التي يشغلونها ،ونصيبهم من الثروة ،فالنشاط الاقتصادي ليس القبيلة بل الحرفة والحانوت. وامام كل هذا التغير فان صعود الفعاليات الاقتصادية ((وسائل الإنتاج)) وتطورها انما يقتضي ((علاقات انتاج)) جديدة تفترض وجود كيان سياسي مجتمعي وهو (الدولة) الذي يؤكد صعود الفعاليات الاقتصادية .

---

[٣٠] د.عبد القادر جغلول ،الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ،ترجمة د.فيصل عباس ،دار الحداثة،بيروت ط٣ ١٩٨٢،ص٤٩.

[٣١] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة ،مصدر سابق، الباب الخامس/الفصل السابع عشر في أن الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته، ص٤٣٧.

[٣٢] عبد الرحمن ابن خلدون المقدمة ، مصدر سابق، الباب الثاني /الفصل الأول في أن أجيال البدو والحضر قديمة، ص١٤٨.

ويدعم زيادة الإنتاج الذي يؤدي الى زيادة إيرادات الدولة فالنظام السياسي سيكون نابعاً من التغير في الفعاليات الاقتصادية –الانتاج والاستهلاك والتوزيع ،فحقيقة العمران لدى فكر ابن خلدون مرتبطة بجهاز الدولة وهي ايضاً مرتبطة بالقاعدة الاقتصادية .[٣٣]التي تضم الصناعيين والحرفيين والتجار والبستانيين والخماسين وصغائر الناس من اصحاب المهن الوضيعة السقاؤون والحمالون والشحاذون والرقيق.

- امتداد النشاط الاقتصادي الى الحاجي والكمالي من السلع والخدمات. وغلبة قطاعات المعاش الصناعي والتجاري والخدمي .فهي تتلائم مع الطبيعة الجغرافية والديموغراية للمدينة .
- تعكس حالة الرفاهية ارتباط علاقات الإنسان والطبيعة بالتخطيط لتحويل وتطويع الطبيعة من خلال العمل .مما يستلزم بروز تقسيمات العمل الحرفية والمهنية بشكل فاعل .ومن ثم تعقد النشاط الاقتصادي.
- تقسيم العمل يسمح بزيادة الإنتاجية بصورة أسرع.ومنه التخصص في المهمات التفصيلية.
- بروز دورة سلعية كثيفة تلبي الحاجة الى التبادل السلعي .مما يستلزم مستوى علمي متقدم .
- استخدام النظام النقدي في عملية التبادل السلعي .
- وجود تراكم للفائض الاقتصادي المتزايد.
- اتساع أعداد السكان وتزايد معدل النمو السكاني.بفعل ارتفاع النشاط الاقتصادي.

لا يقتصر مفهوم الحاضرة بلا استثناء على أهل المدن ،فهو يجمع كل السكان الذين لم تتحدد علاقتهم بالطبيعة بواسطة الاستعمال بل بالعمل على التحول ،وهذا ما يؤدي بالضرورة الى التحضر. هؤلاء الحضر يعيشون من ممارسة مهنة ما أو تجارة ما وتكون مكاسبهم أوفر وأفضل من أهل البدو لأن الحاجي والكمالي من السلع مرتبط بأحوالهم الزائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم. فالإنتاج لا يوجه الى تلبية الحاجات البسيطة بل الحاجات الزائدة عن الضروري . فحالة الترف التي هي قمة الحضارة التي تمكن ابن خلدون من مشاهدتها مباشرة في كثير من العواصم الإسلامية ومن أجل هذا أتت أوصافه دقيقة في هذا الميدان.

ان الترف يظهر في أحوال وسلوكات عمرانية عديدة ويمكن أن يحدد تحديداً دقيقاً بحسب هذه السلوكات:

- انه لا يوجد إلا في الطبقات العليا من المجتمع الحضري،ويشمل بالتدريج أهل الدولة وأرباب المهن المتعلقة بالملك ،وكبار التجار وبعض كبار الصناع.
- أساس الترف بالنسبة لأهل الدولة هو الجباية وما يشابهها من اقتطاعات ومن حيث المهن هو التجارة والصناعة والتجارة على الخصوص لأن مكاسبها أنمى المكاسب.
- سلوك المترفين فيما يتعلق بالأقوات تنوع وتأنق يستدعي سوقاً موفرة لذلك، ويتبع هذا أحوال اجتماعية وعوائد في الطبخ والحفلات واستعمال الخدام لذلك.
- يستوجب انتقاء الملابس الفاخرة من الحرير والديباج وتغيير الأزياء بتطور الدول والأحوال، إقامة صناعات محلية ويستوجب التفنن في التجارة لاستيراد الأنواع الفاخرة من المدن المتخصصة في صناعات النسيج الفاخر.

[٣٣] أحمد إبراهيم منصور، مصدر سابق ص ٢٨٠

التفنن في البناء أعلى مستوى في الترف وغايته بناء القصور الأنيقة الواسعة ويقبل على هذا أهل الدولة وموظفوهم وكبار التجار.

يتصور فكر ابن خلدون ومن خلال النموذج الذي اعتنى به أشد عناية وهو (المدينة العاصمة) التي تستقر فيها الدول وتتتابع ، فمثل هذه العواصم تمثل إشعاعا حضارياً من الثقافات والصنائع الفائقة والتخطيط العمراني وطرق التجارة وهي زيادة على هذا محل التنظيمات القانونية والسياسية التي تخضع لها الآفاق وينقاد لها السكان ، فالمدينة والعاصمة لها إشعاعها الاقتصادي والاجتماعي الجاذب لكل السكان من جميع الآفاق فهي على حد تعبير ابن خلدون (الملاذ النفسية والخيرات الدنيوية)[٣٤].

من جانب ثان ذي صلة مباشرة فان ابن خلدون يحلل ارتباط المدينة والريف بعلاقات اقتصادية تبادلية فالحضارة والمدينة تحتاج الى مخرجات الزراعة والثروة الحيوانية كمستلزمات غذائية التي هي من تخصصات الريف الذي يستقبل مخرجات الصناعيين والحرفيين في المدينة بسبب انهماك أهل الريف بنمط الإنتاج الزراعي وعدم توفر البيئة المكانية والمستلزمات الفكرية و المهاراتية التي تتوفر في أجواء المدينة ومن هنا نجد ان التخصص وتقسيم العمل قد اتضح في علاقات اقتصادية تبادلية بين المجتمعين تؤدي الى تركز الثروة لدى الحاضرة ، وفي ظل هذه العلاقات الاقتصادية نجد تيارات الهيمنة من المدينة واضحة في سلطة الجباة ومظاهر التسلط الحكومي الأخرى ، ومن جانب البادية والريف نرى بوضوح تيار الحقد والضغينة والسعي لاحتلال المدينة من قبل العصائب القبلية المجتمعة في ثنائية بارزة للتناقض المادي الاقتصادي.

٣.مرحلة الذروة(The Climaxed period): وفيها يكون الشقاق بين الملك والعصبيات القبلية قد وقع ، فصاحب الدولة يسود وحده ويمارس سيادته على كل القبائل ، هذه السيادة تدعم بفضل غنى الملك من مصالحة الأقاليم وتطور الصناعات الحرفية تسمح لصاحب الدولة بحيازة مداخيل مهمة .

هذه الثروة تحل محل مكان العصبية خلال فترة من الزمن كوسيلة للحكم ورؤساء القبائل يتسلمون الأموال كتعويض عن فقدانهم امتيازاتهم السياسية .ويستطيع صاحب الدولة ان يستغني عن الدعم العسكري للقبائل لأنه يستطيع ان ينفق على الجيش الخاص[٣٥].

٤.مرحلة الانحطاط (The declination period) ((دور الضريبة/ نفقات الدولة): وهذه المرحلة حتمية لا مناص عنها يراها ابن خلدون بمشاهداته المباشرة للواقع ويسجلها بتحليله المباشر من خلال :

(دور الضريبة Role of Taxes) فبعد طول العهد وبلوغ الدرجات العالية في الرخاء الحضري والمدني تأخذ عوامل التضخم بالانتشار في جسم الدولة والنظام الاقتصادي ومظاهر الإسراف والدعة ثم المزيد من ارتفاع الأسعار وتدني مستويات المعيشة وانخفاض الطلب ونفوق الأسواق وهو ما يرجعه ابن خلدون الى جملة من العوامل الاقتصادية تتبلور في علاقة الدولة بالنشاط الاقتصادي ومدى تطبيقها لسياسة مالية داعمة للنشاط الاقتصادي .

[٣٤] عبد المجيد مزيان ،النظريات الاقتصادية من واقعها المجتمعي، مصدر سابق ،ص٢٨٠.
[٣٥] عبد القادر جغلول ،الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون،مصدر سابق ،ص٦٨.

بعد ان تتزايد مظاهر التدخل الحكومي في النشاط الإنتاجي والمصادرة للأموال يبدأ عزوف الصناعيين والتجار عن الاستمرار بالإنتاج والتجارة بسبب ارتفاع الضرائب وخفوت حافز الربح الى مستويات متدنية ومنه انخفاض النشاط الاقتصادي مع ارتفاع الأسعار ونفوق الأسواق. كيف تنحط الدولة اقتصادياً :يجيبنا ابن خلدون " بان هنالك عدداً من الظواهر الاقتصادية التي تنحو بالنظام الاقتصادي نحو التدهور ومنه النظام السياسي، فقد انتهج تحليلاً اقتصادياً سبق به اقتصاديي القرن العشرين الذين أشاروا الى هذا السبق ومنهم (لافار)المستشار الاقتصادي للرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية (رونالد ريكن) – صاحب مدرسة اقتصاديات العرض–الذي استوحى فكرة ابن خلدون وطورها بشكل بياني أطلق عليه فيما بعد بمنحنى لافار(Laffar carve):الذي يشرح (أثر الضريبة على الإنتاج): و قد خصص لها ابن خلدون الكثير من كتابه المقدمة، و تناول جوانب عدة منها، بل و خصص لها فصولاً منها مثلاً الفصل الثامن و الثلاثون الذي عنونه:(الفصل الثامن و الثلاثون في الجباية و سبب قلتها و كثرتها). [٣٦]

- التحصيل الضريبي(Taxation) يحلل ابن خلدون الضريبة ودورها في حركة النشاط الاقتصادي فيقول " الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون قليلة الجملة كثيرة الوزائع ،فالدولة في أولها تكون بدوية تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح فيحصل بذلك التجافي عن أموال الناس وإذا كثر الاعتمار كثرت إعداد تلك الوظائف الوزائع فكثرت الجباية واستمر الملوك في تعاقبهم الى ان جاء الملك العضوض والحضارة الداعية الى التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب انغماسهم في النعيم والترف فيكثرون من المكوس على الرعايا وسائر أهل المغارم ثم تتدرج في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق حتى تثقل المغارم على الرعايا فتذهب آمالهم بقلة النفع قياسا بالمغارم فتنقبض بذلك كثير من أيدي الرعايا عن الاعتمار مما يعود وبال ذلك على الدولة [٣٧]. تؤدي المعدلات الضريبية المنخفضة إلى تنشيط العمل(وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه) و هو ما يعرف بالتعبير الاقتصادي الحديث "الأثر التحريضي" للضرائب، فيدفع الأثر التحريضي (الأثر الحاث) إلى زيادة الأوعية الضريبية التي تدفع منها الضرائب (فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم) ، ومن ثم زيادة الحصيلة النهائية للضرائب " وإذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف و الوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها".
- (نفقات الدولة) The Government Expenditures: ان الدولة هي السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران فإذا احتجز السلطان الأموال او الجبايات ولم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما في أيدي الحاشية والحامية وانقطعت نفقاتهم وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح ويقل الخراج لان الجباية والخراج إنما تكونان من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس الخراج ،فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان، فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية [٣٨].لقد لاحظ ابن خلدون ان عواصم المغرب الإسلامي كانت تعيش هذه المرحلة .

المبحث الثالث / (تحليل التأثير الاقتصادي لعامل العصبية القبلية في التحول الاجتماعي)

[٣٦] للتوسع في منحنى لافار ينظر، الأستاذ الدكتور بن علي بلعزوز والأستاذ عبد الكريم قندوز، ورقة بحثية بعنوان " مبدأ "الضريبة تقتل الضريبة" بين ابن خلدون و لافر" المعهد الإسلامي للبحوث و التدريب- الجزائر - مدريد – شبكة الانترنت الدولية ، نوفمبر ٣-٥ ٢٠٠٦، ص١٢.

[٣٧] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة، مصدر سابق، الباب الثالث /الفصل الثاني والأربعون في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية ص٣١٢.

[٣٨] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص٣١٩.

(Economic Effect analysis for esprit de corps in society transformation)

مما سبق تناوله نجد ان فكر ابن خلدون قد تمكن من تشخيص الجمود الذي يقع في جسد الدولة والمجتمع في عملية التمفصل وإرجاعه الى منظومة البنى الداخلية للمجتمع الذي عاش فيه ،ان تلك البنى المتهالكة بسبب نمط الحضارة الاستهلاكية كتب لها التغير والتحول من حالة الجمود الى حالة حياة جديدة وعودة من جديد (الانحطاط) الى بداية مرحلة العمران لكن على يد المجتمع الفاتح القادم من بيئة المجتمع البدوي. لذلك فان عملية استجلاء حرص ابن خلدون على تشخيص ذلك الواقع اقتصادياً انما جاء من خلال النقاط الاتية:

١.نمط الاستهلاك الترفي (Luxury consumption model): بعد انتهاء صراع البادية /المدينة لصالح البدو وانتقالهم الى حياة الحاضرة عن طريق العصبية القبلية ((التنظيم الاجتماعي السياسي ذي البأس العسكري)) الذي يتمركز للحكم في المدينة العاصمة ومع تطور مظاهر العمران الحضري والتقدم الاقتصادي في الصناعة والتجارة فان عمران المدينة والدولة سيأخذ بالنمو والنضج حتى يصل الى أقصاه وسرعان ما ينخفض تدريجياً وخصوصاً مع تنامي ظاهرة الاستهلاك الترفي لموظفي الجهاز الحكومي والمقربين من السلطان أو الملك الذين يَنغمسُون والسلطان في نمط الاستهلاك التبذيري والترفي ،و يَعِيشُون حياةَ كمالية فاخرة جداً، يهدرونُ الموارد الاقتصادية التي بنيت في عهد من سبقهم. ونجد الملك يقرب الأتباع العاجزين وغير المؤهّلين ليَأتمنهم على الأمورَ الأكثر أهميةً في البلاد. رجال المحكمةِ العاطلينِ يكَافَئون، والنقّاد المخلصون يذلون ويعاقبون ويَفْقدُ الحاكمُ كُلّ نوع من العطف والرحمة للعباد فنرى الضريبة تَفْرضُ بشكل متزايد ، بينما ((دخول)) الرعايا تأخذ بالهبوط نتيجة لانسحابهم من النشاط الاقتصادي بفعل انحسار المتوقع من الأرباح نتيجة لارتفاع التكاليف وبالتالي ارتفاع أسعار السلع ومنه انخفاض الطلب عليها لذا فالاقتصاد يأخذ بالكساد ومنه الى الركود فيقل الاعتمار مما ينعكس على اضعاف الدولة اذ انها مرهونة به. فتعاني الحكومةُ مِنْ المرضِ العضالِ، الذي يؤدّي إلى سقوطِها وسيطرة سلالة جديدة على الحكم ، مدعومة من قبل مجموعة من العصائب ذات القوة والبأس العسكري.[٣٩]

٢- الغنائم الموزعة(The distributor spoils)،أساساً بين بعض الأيدي تسمح لأكثرهم امتيازا بأن يحيط نفسه بزبائن يتكاثر عددهم باستمرار ،الأمر الذي يخفض بالمقابل من مصلحة رابطة الدم ، فشخصيات القبيلة المهمه ،منذ أن يصبحون حكام مقاطعات ويتمركزون في المدن البعيدة عن العاصمة يفقدون تماسهم اليومي الذي كان أحد الأسباب لتلاحمهم ، وبمقدار ما يبدأ التفاوت بين أعضاء القبيلة فإنهم يزدادون وعياً بواقعهم الجديد ،وبذلك يصبح أكيداً أنهم من المستفيدين الأساسيين من الغزوات هم والملك والمقربون إليه .كما تظهر الروابط العائلية بشكل متزايد بمثابة وهم .[٤٠]

٣- وكذلك فان تأثير العامل الاقتصادي (Economic factor)يستمر بتطور عملية تقاضي الأموال الطائلة من قبل المقربين وبمجرد حصولهم على المقتطعات من الأراضي تنفصل مصالحهم عن البعض الآخر

[39]See, Adil H. Mouhammed, On Ibn Khaldun's Contribution to Heterodox Political Economy University of Illinois at Springfield; Springfield, IL 62703, USA. Email: amouh1@uis.edu .p7.

[٤٠] ايف لاكوست ،مصدر سابق، ١٤٦

ويصبحون بدورهم صنوفاً من الإقطاعيين والطامعين بالعرش.وبذلك يدب بينهم فيما بعد روح التنافس والإقصاء ويتوج ذلك بالحروب الداخلية التي تستقطب مطامع الفاتحين الجدد القادمين بقبائلهم المتعصبة من الصحراء والبادية.

٤- تأثير عملية الاقتطاع للأراضي من قبل الملك يؤدي الى تشكيل فئة اجتماعية جديدة من الإقطاعيين ستقوم بمعارضة الملك فيما بعد ، ولكي يتكفل الملك بزيادة النفقات لتعويض رؤساء القبائل عن مراكزهم الاجتماعية والسياسية في القبيلة سيلجأ الى رفع الضرائب على الأراضي وعلى العقود التجارية بالطريقة الشرعية ومنه تخفيض الدخول للعامة والذي يؤول الى تباطؤ الحياة الاقتصادية .

٥- ان البؤس والنقمة تثير التمردات والاضطرابات التي يستفيد منها الإقطاعيون والطامعون بالعرش والناقمون أو المبعدون ، مما يزيد من نفقات قمع هذه التمردات والذي يتطلب زيادة عدد المرتزقة الذين ينبغي دفع مخصصاتهم وعليه فالإنفاق الذي تقوم به الدولة في مرحلة الحضارة الاستهلاكية يوجه القسم الأكبر منه نحو حماية كيان الدولة(الملك) ضد المخاطر الداخلية والخارجية ومنه تضطر الى زيادة المكوس الشرعية وغير الشرعية على الموارد البائرة ،مما يثير تململ القبيلة الأكثر قوة من دفع الضرائب في البلد المنشق ومن ثم يزداد الإنفاق العسكري على المرتزقة لمواجهة التمرد القبلي ومعه يزداد الإنفاق العام ومع انخفاض وتباطؤ الحياة الاقتصادية فان عوامل الانحطاط الاقتصادية تبرز على صعيد زوال السلالة الحاكمة تحت ضربات القبيلة الجديدة المزودة بالعصبية القوية والخلاصة ان التطورات والتحولات المجتمعية تنبع في نظرية ابن خلدون (العمران) من العامل الاقتصادي، لما للعصبية من دلالات اقتصادية ،أهمها :

- **الدلالة الاقتصادية الأولى** First Economic Indication: تبرز في حالة البيئة البدوية ونشهد فيها الدور الاقتصادي لرئيس القبيلة نحو توجيه الفوائض الناتجة من اقتصاد البداوة لطريق أخرى غير الطريق الاعتيادية سالكا في ذلك مساراً وتوجهاً اقتصادياً يحرم فيه عامة إفراد القبيلة من عملية (الترسمل) فهو ملك من دون مملكة أو رئيس من دون حكومة والعصبية هنا لا تبرز بشكلها الواضح في مجتمع البداوة إلا بقدر مدلولات الطاعة الاجتماعية القبلية العصبية في بيئة الأراضي الأكثر جفافاً ، مما يؤدي الى انحسار الفائض الاقتصادي وتدني النشاط الاقتصادي وبقاءه ضمن أفق المعاش الضروري .

- **الدلالة الاقتصادية الثانية** Second Economic Indication: تظهر للعصبية في تقليص الترسمل الناجم عن فوائض الإنتاج المحدودة بفعل التأثير الاجتماعي للبنية القبيلة في المغرب العربي والتي تكتنز رؤوس الأموال لدى رئيس القبيلة بعنوان الولاء للدم وللقبيلة ومن ثم انهيار عملية التراكم الرأسمالي ،ومنه تركز ملكية رؤوس الأموال لدى رؤساء القبائل الذين يضيعونها في أمور استهلاكية لا تتعدى مظاهر عسكرة المجتمع ومن ثم تركيز ومركزة مظاهر المعاش في البادية .

• **الدلالة الاقتصادية الثالثة** Third Economic Indication: وهي ان العصبية في بيئة العمران ذات الفائض الاقتصادي الوافر والى جانب خصائصها المذكورة سابقاً ، تتخذ شكل التمركز والنمو حول مستوى التطور الاقتصادي للعمران وهنا نجد رئيس القبيلة يمنح الإقطاعات والهبات الزراعية ومراعي تربية الماشية للعملاء والولاة والمقربين من قبيلة الملك والقبائل المتحالفة معه و الذين يؤدون واجب الطاعة للملك في تنفيذ أوامره مما يستدعي إصدار حلقة جديدة من المكوس والضرائب المفروضة على السكان. يقول ابن خلدون " ان طبيعة الملك تقتضي الترف فتكثر عوائدهم (أهل العصبية) وتزيد نفقاتهم عن أعطياتهم ،ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ،ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة الى ان يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحرب فلا يجدون وليجة عنهم فيوقعون بهم العقوبات وينتزعون ما في ايدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم ،ويضعف صاحب الدولة بضعفهم .وأيضا اذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم ،احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويريح عللهم. والجباية مقدار معلوم لا تزيد ولا تنقص وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً.فإذا وزعت الجباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات ...ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحامية،الى ان يعود عدد العسكر الى اقل الأعداد ،فتضعف الحامية لذلك" [٤١].نجد من هذا التحليل ان مقتضيات الإنفاق العام ومن جملتها التسليح والإعداد العسكري له أهميته في حفظ نظام الدولة ومنعتها فزيادة المكوس وذهاب مبالغها للإنفاق الترفي واتساعه مقابل انخفاض الإنفاق العسكري سيؤثر حتماً فيما بعد على منعة الدولة عسكرياً مما يجعلها عرضة للأطماع الداخلية والخارجية، فضلاً عن إضعاف واقع صنائعهم وحياتهم الاقتصادية وهو العامل الأساس.

• **الدلالة الاقتصادية الرابعة** Fourth Economic Indication: تأتي في سياق بحث المجتمعات عن الحاجة بمستواها الملائم لمرحلة التطور في الخروج من واقع نمط الإنتاج الضروري (المعاش البدوي – الاستيحاش–) الى واقع نمط الإنتاج (الحاجي والكمالي المعاش الحضري– الاستئناس–)الذي تتوفر عليه بيئة العمران الحضري، فنرى الرفاهية ومظاهر الترف والدعة واضحة في أجواء المدينة والحاضرة ، جراء زيادة الإنتاج وتقسيم العمل ومنه تطور واقع نحل المعاش وزيادة السكان والدخول ونمو مظاهر التعليم في دور العلم، ومظاهر البناء الفخم والزخرف والنقوش، وكل المظاهر التي حرمت منها البادية بفعل إمكاناتها الجغرافية والاقتصادية .

[٤١] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ،مصدر سابق ،ص١٩٩.

الاستنتاجات Conclusions

من دراسة التحليل الاقتصادي لأحوال العمران في مقدمة ابن خلدون يستنتج الباحث النقاط الاتية :

أ- تبين لنا أهمية العامل الاقتصادي في نشوء وتطور المجتمع من دراسة مقدمة ابن خلدون ،في تقسيمات العمران ، فجذر الأحداث كما يراها ابن خلدون انما هو ((اقتصادي)) ومن ثم تأتي العوامل الأخرى.

ب- ان هناك علاقة وثيقة بين الفكر الاقتصادي والواقع الاقتصادي. فمنهج التحليل الاقتصادي في تقسيمات العمران والذي اتبعه فكر ابن خلدون انما هو نابع من تلك العلاقة.

ت- علاقات الإنتاج في البادية تابعة لتنظيم اجتماعي اقتصادي وهو العصبية القبلية.

ث- يمارس العامل الاقتصادي الدور الاساس في الانتقال من المجتمع البدوي الى الحضري في تحول العصبة من البادية الى المدينة .فاثر العصبية اقتصادي اجتماعي وليس اجتماعي فقط.

ج- كشف فكر ابن خلدون عن اربعة مراحل للتطور الحضاري وهي مادة العمران.

ح- للعصبية القبلية دلالات اقتصادية كان من ابرزها التحكم بالفائض الاقتصادي لصالح رئيس القبيلة نتج عنه نمط استهلاك عسكري كمظهر من مظاهر العصبية القبلية مما نتج عنه تقليص واضح لأي مظهر من مظاهر عملية (الترسمُل) وهو اكتشاف مهم لفكر ابن خلدون يوضح لماذا انتهت حلقة التطور في مجتمع المغرب الاسلامي ولم تكتمل بظهور ملامح وبوادر نشوء طبقة للرأسماليين كما حدث في مجتمعات الغرب الاوروبي بعد اضمحلال طبقة الاقطاعيين.

خ- كذلك تبين من الاكتشاف المذكورة انفه ان مجتمع المغرب العربي في طيات حضارته وعمرانه كان يعاني من مرض اقتصادي خطير وهو سيادة نمط الحضارة الاستهلاكية في اللاوعي النخبوي الحاكم وكذلك عند الفئات ذات الدخل الكبير ومنها فئات المقربين من الملك والحكومة ممن استأثروا بالمنافع الاقتصادية.

د- ان ظهور حلقة التطور للمجتمع المغربي على شكل الدائرة الكاملة مابين البداوة والحضر يستجلى منه ان الانحدار الذي كانت تعيشه المجتمعات المغربية يرجع في الاساس الى عدم تهيئة المدخرات بالشكل الذي يؤدي الى استثمارها وهو امر يعود الى عدم اكتمال الشروط الموضوعية للانتقال الى بدايات المجتمع الرأسمالي وذلك بسبب انخفاض مظاهر العدالة بالتوزيع فيما بين المدينة والبادية مما عزز الهوة الاقتصادية مابين المجتمعين وخلق ثنائية اقتصادية متناقضة أودت بمجتمعات المغرب العربي في العصر الوسيط الى الانحطاط والتخلف .

ذ- نستنتج من البحث ان السياسة الاقتصادية للدولة ينبغي ان تكون مستندة الى نقطة اقتصادية أساسية وهي الابتعاد بسلوك الأفراد (المستهلكين)عن نمط الاستهلاك غير المنتج من خلال دعم وتنشئة كل ظاهرة لها علاقة بتنمية نمط الحضارة الإنتاجية القائم على استثمار الموارد المالية لتحريك وتطوير النشاط الاقتصادي ، وهو ما نستشفه من قراءة ابن خلدون المريرة التي سجل من خلالها ملاحظاته القيمة ليرسم من خلالها مسار السياسة الاقتصادية المالية للدولة.

التوصيات

١. واذ يثمن الباحث القيمة المعرفية للفكر الاقتصادي عند ابن خلدون، فانه يطمح في الوقت نفسه الى دراسة ارث علمائنا العرب ،علماء الحضارة العربية الإسلامية التي أنارت العالم في الوقت الذي كانت فيه حضارة الغرب تعيش أجواء القتل لكل من يقول بكروية الأرض.

٢.الاهتمام بالفكر الاقتصادي لابن خلدون كجزء من المقرر العلمي لمادة الفكر الاقتصادي.

٣.اعادة صياغة الاطار الاجتماعي لرؤية الدولة نحو الاقتصاد والأخذ بنظر الاعتبار (مقاربة الإرث الخلدوني) الذي يركز على اجتماعية الظواهر الاقتصادية ، للوصول الى واقعية اقتصادية من الممكن ان تدرج في اطار الاستراتيجيات التخطيطية العامة .

٤.الاهتمام بقراءة علمية لفكر ابن خلدون وذلك من خلال الانطلاق لدراسة ظاهرة الثنائية الاقتصادية التي قد نراها في تباينات الريف والحضر كظاهرة خطيرة على مستوى التخطيط الاقتصادي ومحاولة تشخيص مواطن الضعف والقوة في هتين البيئتين ومن ثم رسم السياسات الكفيلة بالتقليل من اثرها في عملية التنمية الاقتصادية .

المصادر :

١.أحمد ابراهيم منصور، نظرية الدولة والفعالية الاقتصادية ،أطروحة ابن خلدون أنموذجاً "دراسة مقارنة" جامعة الموصل ،كلية الإدارة والاقتصاد ، قسم الاقتصاد، مجلة تنمية الرافدين العدد ٩٣،المجلد ٣١،لسنة ٢٠٠٩ص[٧٩-١٠٣]

٢.احمد إبراهيم منصور ،دراسة منهج الفعالية الاقتصادية :العمران والعقل الخلدوني أنموذجاً مجلة إسلامية المعرفة ،المعهد العالي للفكر الإسلامي، العدد ٥١ شتاء ٢٠٠٧.

٣.إيف لاكوست ،العلامة ابن خلدون ،ترجمة ميشال سليمان ،دار ابن خلدون ،بيروت ،لبنان،١٩٧٤.

٤.سالم المكي ،الاقتصاد في مقدمة ابن خلدون بين الواقع والنظرية ،تونس ٢٠٠٦ ط٢ .

٥.شوقي دنيا ،جوانب من الاقتصاد الكلي في فكر ابن خلدون، جامعة أم القرى ،دار معاذ ١٩٩٣.

٦.محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التأريخ الإسلامي،دار الطليعة. بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة نيسان ١٩٨٢،

٧.زينب الخضيري ، فلسفة ابن خلدون التاريخية ،أطروحة دكتوراه، كلية الآداب بجامعة القاهرة ،دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٩عبد الرحمن ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ((اعتناء ودراسة أحمد الزعبي)) ، بيروت دار الأرقم ابن ابي الأرقم دون تاريخ .

٨.عبد الرحمن ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، بيروت ، دار الكتاب اللبناني١٩٧٩.

٩.عبد الرزاق مسلم ماجد ،دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية ،بغداد ،١٩٧٦عبد المجيد مزيان ،النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، سلسلة الدراسات الكبرى،الشركة الوطنية للتوزيع والنشر ،الجزائر،١٩٨١.

١٠. عبد القادر جغلول ،الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ،ترجمة د. فيصل عباس ،دار الحداثة، بيروت ط٣ ١٩٨٢.

١١. غاستون بوتول،ابن خلدون فلسفته الاجتماعية ،ترجمة عادل زعيتر ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،لبنان، الطبعة الثانية.

١٢. محمد الأخضر بن حاسين، الفكر الاقتصادي عن عبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦)،منتدى فكر علمي وثقافة تقدمية ،شبكة الانترنت.

١٣. محمد عارف الكيالي ،تاريخ الفكر الاقتصادي – الجزء الثالث- الفكر الاقتصادي في العصر الوسيط، مكتب الطابعة المركزي /جامعة بغداد ، كلية الادارة والاقتصاد،١٩٩١.ص١٥.

14. See, Adil H. Mohammed, On Ibn Khaldun's Contribution to Heterodox Political Economy University of Illinois at Springfield; IL 62703, USA. Email: amouh1@uis.edu. .

The Economic Analysis for Construction in Ibn Khalduon s' Muqaddimah

Abstract

The specialist researcher fined the relations between economic ideas with economic facts in his theory which called humanity building it is appeared clearly (in Ibn Khalduons' Muqaddimah) in a clothe of economic social phenomenon's as a systematical analysis in all fifty chapters of al Muqaddimah ,therefore this paper deal with Ibn Khalduon economic thoughts as important says which describe the society building in its economic subjective and examine the relationship between The dissert and the city within economic says which are cover the social analysis ,and determinate the analysis objects which clearly in this dualism model ,between the state and economic base(Al mash) ,so that Ibn Khalduon see the dramatic economic changes from the dessert to the city .Ibn Khalduon now how the civilization growth and decline by the economic factor which consider by Ibn Khalduon the first and greatest accomplish to classify the tow environments belongs to the ways to the human get there living from using the nature (means of production) which leads to the production collections ,clearly growth within times. it is so much relatively to the conditions which role the tow economical model in society at fourteen century in morocco kingdoms .this paper leads us to describe and analyze the most important factors to decline the civilization of Morocco at that period by the economic factor which Ibn Khalduon thought it by the consumption civilization model because of destroying all capitalization in the two environments and didn't moving to the capitalism system , therefore Ibn Khalduon ideas pattern to historical economical development of societies ,as a scientific method.

Keywords / construction–economic–analysis– rural area–calligraphy–phenomenon- esprit de corps- struggle– ambivalence- society.